## دراسات في الأدب النسائي

# الرؤية الإسلامية وجماليات الفن في البحث عن الجذور لمؤمنة أبو صالح

**رواية** «البحث عن الجذور» للكاتبة الإسلامية مؤمنة أبو صالح واحدة من الأعمال السردية المهمة التي أثرت المكتبة الروائية الإسلامية، وهي مع أخواتها حنان لحام وجهاد الرجبي وغيرهما يعتبرن من الطليعة المؤسسة لمشروع روائي إسلامي يعتبر بشكل أو بآخر مرحلة جديدة في تطور هذا المشروع الذي شهد أمجد تجلياته بعد الكاتبين الكبيرين الرائدين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني.

بقلم: د. محمد صالح الشنطي
الأردن


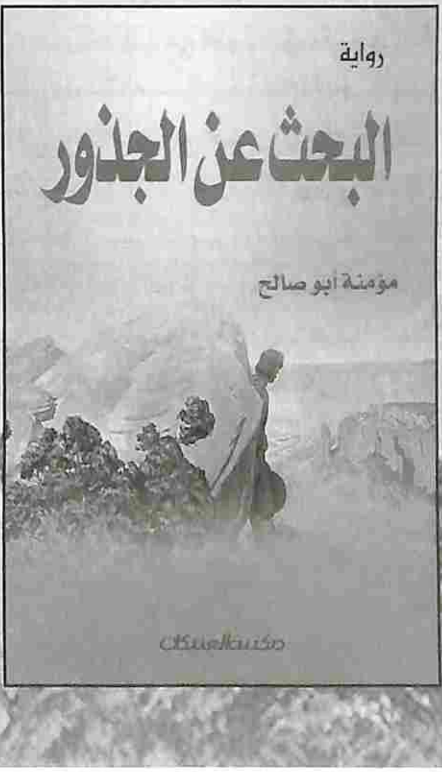

وهذه الرواية التي تعتبر من العلامات المضيئة في طريق الأدب الإسلامي ذات رؤية ساطعة للعلاقة بين الشرق والغرب، وهي تضيف إلى ما سبقها في تراثنا الروائي العربي لدى توفيق الحكيم في «عصفور من الشرق » والطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال» وسليمان فياض في «أصوات» وغيرها من الأعمال البارزة في هذا المجال نزعة دعوية شفيفة يستشعرها الأديب المسلم كرسالة عليه أن يؤديها بإخلاص، وقد أوجدت هذه النزعة إشكالية تتصل بالعلاقة بين الأدب بوصفه ( رؤية ورسالة) وجماليات الفن، ولعل كثيراً من التوفيق حالف الكاتبة في حل هذه الإشكالية، وقد تمثل في هذا النفس السردي الأصيل بتلقائية وحِرَفية معاً على نحو ما سنلاحظ لدى تحليلنا للرواية، ولكن كان لا بد من التضحية بشيء من قيم الفن أو تكييفها مع مستلزمات الدعوة ظهر في بعض المباشرة والتقرير خلال الحوار بطبيعته الفكرية ونزعته الجدلية.

## البناء ودلالة العنوان:

وإذا ما بدأنا بالعنوان بوصفه العتبة الأولى التي تقودنا إلى داخل النص سنجد أن كلمة «البحث» ذات دلالة حركية فيها إشارة إلى جهد مبذول وجهاد من أجل الوصول إلى هدف «ما». وهي «مصدر»، والمصدر يدل على حدث مطلق متحرر من قيد الزمان والمكان. ولكن هذا الإطلاق يتم تحديده داخل الرواية عبر وقائع متعينة زمانا ومكانا وطبيعة، أما الجذور فهي تعادل في معناها العام مصطلح الأصول بمختلف دلالاته، وهو مصطلح شائع ،فقد وصفت الحركات الدعوية بأنها أصولية، ولكن الجذور هنا أشمل من المفهوم الأصولي وأدق في دلالتها لأن بطل الرواية يسعى إلى البحث عن هويته المتمثلة في نسبه العائلي، وفي الوقت ذاته فإن من أبرز ملامح هذه الهوية الإسلامَ، فالعنوان فيه حيوية الفعل وهو ما يمنح السرد سمته الجمالية، وكذلك الملمح العقدي بثباته ورسوخه ممثلاً في الجذور.

وقد عمدت الكاتبة إلى تنظيم بنية العالم الفني لروايتها وإقامة التوازن بين الخطاب والتاريخ، لأن الوعي بعلاقات النص يمد الرواية بقوة تركيبية ودلالية، وبالذات فيما يتعلق بالحدث والشخصية، ومشكلة البناء في

> ■ عمدت الكاتبة إلى تنظيم بنية العالم الفني لروايتها وإقامة التوازن بين الخطاب والتاريخ.

الحدث تتمثل في ترتيب الوقائع التي تشكل «المتن الحكائي» الأمر الذي يفضي إلى «المبنى الحكائي.. وهو مناط الجمالية فيها وأساس الرؤية الدلالية كذلك، والكاتبة قامت بترتيب هذه الوقائع ترتيبا متصاعدا ومتراجعا في آن، وقد بدأت من نقطة البداية على لسان الأم التي تروي حكايتها للابن ثم تبدأ من منتصف الرواية بعد موت الأم حين يقوم برواية الحدث الابن يوسف، وهنا تبرز تقنية التناوب في موقع السارد محددة ما يسمى (بالتبئير) في أدبيات النقد الروائي، فقد أرادت الكاتبة أن تمنح الرؤية سمتها الدلالية عبر الإطلالة الأولى للراوي (المشارك) وهو البطل الذي اعتلى منصة السرد، ولكي يمنح موقفه مصداقيته كان لا بد من التوثيق فنقل عن الأم التي لخصت قصة زواجها من الأب زارعة منذ البداية (المفارقة) التي تشكل العقدة الرئيسة في الرواية جماليا ودلاليا ممثلة في الانتماء إلى القطبين المتجاذبين (الشرق والغرب) مما أدى إلى العمل على استنبات درامية الموقف فيما يختص بالبطل، وبعد تشكيل هذه القاعدة الجمالية التي انطوت على البذرة الملحمية الدرامية عبر الجمع بين النمطين المتصاعد والمتراجع في خط السرد مضت الرواية في تسلسل زمني لم يخل من التقاطع والتوازي بين الحين والحين، أما التقاطع فيتجلى في اختراق التسلسل عبر محطات تدخل فيها عوامل جديدة طارئة تغير مسار الحدث على نحو ما وقع حينما اضطر يوسف إلى الرحيل بعد أن فوجئ بخطبة سلمى في الوقت الذي كان يمني نفسه بالزواج منها، ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد بل جاءت المفاجآت الواحدة تلو الأخرى لتختتم بتحقيق الأمنيات كلها دفعة واحدة : عودة الأب إلى ابنه، والحبيبة إلى ابن عمها، إذ يتزوج يوسف من سلمى التي سعت إليه بمراسلتها لوالده شاهدة على بنوته الصادقة لأبيه.

بدت الرواية كتيار سردي مستمر تتخلله مشاهد حوارية كثيفة، تميط اللثام عن رؤية الكاتبة، فهي لم تضع عناوين لفصولها ولم تهتم بترقيمها، بل اكتفت بوضع علامات كتابية في نهاية كل فصل ترمز إلى بداية الفصل القادم، وهذه المسألة لها دلالتها، بالإضافة إلى أنه ليس ثمة توازن بين الفصول من الناحية الكمية، فالرواية مكونة من أحد عشر جزءاً، كل جزء بمثابة فصل، بعض هذه الفصول يطول فيصل إلى ثلاثين صفحة علماً بأن عدد صفحات الرواية (١٢٣) صفحة، وبعضها يقصر فلا يزيد عن صفحة.

## الفصول واتجاه الحدث :

من ذلك يتبين للمتلقي أن مسألة الفصول من حيث كونها وحدات سردية لم تنل من اهتمام الكاتبة ما تستحق، بل اعتبرت محطات حدثية، إذ المهم هو اتجاه الحدث إلى نهايته المرسومة.

وهذه المحطات التي تكشف عنها المتواليات السردية عبر ما يمكن أن نسميه بالفصول تتمثل في انتهاء المتوالية الأولى بموت الأم على سبيل المثال بعد أن رسخت حقيقة انتماء يوسف إلى أبيه، وهذا أمر محوري يشكل بؤرة الحدث وأساس الرؤية في الرواية، فالمعاناة التي تحملها الأب، وأدت إلى غيابه واغترابه، والضياع الذي شعر به الابن بعد موت امه، والرفض الذي جوبه به من قبل سلمى في بداية الأمر كان كله بسبب الشك في هذا الانتماء، وقد نجحت الكاتبة في الحفاظ على تماسك الرواية من خلال إمساكها بهذا الخيط المهم الذي أصبح المحرك الرئيس لأحداث الرواية أو ما اصطلح على تسميته (الدافع) الذي تقوم عليه البنية الروائية برمتها، وقد بدت انسيابية السرد واضحة في هذا الجزء من الرواية منذ أن شرعت الأم بالبوح لابنها بحقيقة الأمر وهي على فراش المرض ورصد وجيب انفعالاته الداخلية إزاء تلك الاعترافات إلى أن غابت الأم عن الوجود تماما.

وقد بدأت رحلة البحث عن الأب في الفصل الثاني بناء على ما سمعه (الراوي المشارك) وهو يوسف من أمه، فبدا النمو الحدثي نمواً عضوياً متواشجاً مع قاعدة الانطلاق الرئيسة في الفصل الأول، وقد واكب البحث عن الأب البحث عن الهوية في تهيئة منطقية كانت جواز المرور إلى الانتماء المتعلق بالنسب، بل سارت عملية تطورالانتماء العقدي جنباً إلى جنب مع الانتماء إلى الأب، وهو ما يخدم القضية الأساسية التي تشكل صلب الرؤية الإسلامية في الرواية، لذا أفاضت الكاتبة في وصف زيارة يوسف للمركز الإسلامي ورموزه الدعوية : الإمام وصلاح الدين ومن قبلهما محمد علي ثم مصطفى، وأدخل في روع المتلقي أن البوصلة الهادية إلى الأب تتمثل في هذا المركز الذي بوساطته ازدهر الأمل.

كان المركز الإسلامي سبيلاً إلى الخلاص من الحيرة التي استبدت بيوسف في بحثه عن أبيه، بعد أن كاد اليأس يطبق عليه تماماً، حيث فتحت أمامه آفاقاً للوصول إليه، وفي - ذات الوقت - كانت الطريق الموصل إلى الإسلام، وكلاهما خطان متوازيان يسيران

جنباً إلى جنب إذ يوصلانه إلى الجذور التي يبحث عنها ليؤكد هويته الإسلامية.

## التحولات والمشاهد الحوارية:

وقد عمدت الكاتبة إلى جعل النقلات المكانية سبيلاً إلى الانعطافات الحاسمة فيما يتعلق بالحدث الروائي منذ بداية الرواية، فانتقال أحمد الراوي إلى أمريكا كان سببا في زواجه من أم يوسف الأمريكية، وانتقال يوسف إلى المركز الإسلامي كانت نقطة تحول في حياته، وكذلك سفره إلى الميناء الذي يؤمه والده، وتنقله معه في قاربه في عرض البحر كان سبيلاً إلى استكشاف أبعاد مأساته، ثم سفره إلى أهله في تلك العاصمة العربية التي لم يذكر اسمها كان طريقه إلى التعرف إلى سلمى التي تزوجها فيما بعد، والتي أدت إلى تأكيد انتمائه لوالده الذي تنكر له، ثم كان لقاؤه بسلمى سببا في إصلاح الأمر واعترافه بيوسف.

من هنا كان المكان سبباً في التحولات الحديثة المهمة، وليس مجرد مسرح أو وعاء للحدث، وقد اهتمت المؤلفة بشخصية المكان فمنحته هويته الإنسانية، وحولته من مجرد مساحة أو فضاء إلى بناء تخييلي له سماته وملامحه التي تؤثر في جوهر تطور الحدث فكالفورنيا هذه الولاية الأمريكية ليست مجرد محطة جغرافية بل هي تضاريس اجتماعية وسلوكية وحضارية، قس على ذلك المركز الإسلامي والعاصمة العربية، وحتى الفضاء الكوني الذي تحركت فيه أحداث القصة كالبحر كان له تأثيره في مسار السرد وتشكيل الرؤية، غير أن المؤلفة لم تعن بذكر أسماء الأمكنة في بعض الأحيان كالعاصمة العربية التي ينتمي إليها أحمد الراوي، فقد أغفلت تماماً، وكأنما أريد لها أن تكون مجرد أنموذج للمدينة الإسلامية في الشرق العربي.

أما فيما يتعلق بالمشاهد الحوارية فإن هذه المشاهد التي احتلت مساحات واسعة من الرواية يبررها الطابع الدعوي لهذا العمل، وإذ كانت الرواية - وفقاً لباختين - أحد كبار منظريها - تقوم على تعددية الأصوات (البولوفونية) وتعدد اللغات، ويمكننا أن نقسم الحوار في الرواية إلى أنواع متعددة بعضها يخدم الحدث ويعمل على تطويره، وهو مرتبط

> ■ منحت الروائية المكان هويته الإنسانية وحولته من مجرد فضاء إلى بناء تخييلي له سماته وملامحه التي تؤثر في صنع الحدث.

على نحو عضوي به، كالحوار الذي دار بينه وبين صلاح الدين الذي وجده في المركز الإسلامي، ووضع يده على أدلة الخيوط التي يمكن أن توصله إلى والده، ولكن بعض مقاطع الحوار طالت، واكتظت بالشروحات المتعلقة بالإسلام وبالعودة إلى التاريخ، فضلاً عن أن هذا الحوار استغرق أكثر من خمس عشرة صفحة. وحوار جدلي على النحو الذي دار بين يوسف وأبيه في الميناء وفي القارب، وهناك حوار فكري، وفي مقابل هذه الحوارات هناك حديث النفس الذي لا يصل إلى مستوى المنولوج الداخلي، غير أن لغته تتسم بالحيوية والحركة عبر تنوع الأساليب ما بين المناجاة والاستفهام والحديث الخالص والحوار المروي، والانتقالات السريعة التي تمنح هذا الحديث حيوية خاصة فضلاً عن رشاقة العبارة، واستثمار ضمير المتكلم في الرواية منح السرد دفئاً وحميمية وبدا أقرب إلى البوح الوجداني الحميم،

مركز إسلامي في الغرب

فضلاً عن الحرص على الوصف الخارجي ذي السمة الشعرية لمظاهر الكون بما يجسد الحالة النفسية.

« بدأت أتأمل ساحة المدينة الذي بدأ يختفي بالتدريج وبدأ نور الشمس يغمر المكان، وكان الهواء بارداً منعشاً وصوت النورس يقطع الصمت بحدته... إلخ»ص٤٤.

لقد نجحت الكاتبة في استنقاذ السرد من بين أنياب الملل الذي غالباً ما ينجم عن الحوارات ذات الطابع الفكري، وذلك عبر اصطناع لغة حوارية رشيقة العبارة، وإن بدت حمولتها الفكرية في بعض الأحيان فوق طاقة الحوار الروائي.

## الحبكة والحكائية:

ولا بد من الإشارة هنا إلى النزعة الحكائية الشعبية التي تعتمد على المفاجآت وكسر التوقعات، فالحديث عن الشامة التي كانت من الأدلة على بنوة يوسف لأبيه، وكذلك استكشاف موقف سلمى الحقيقي بعد أن دب اليأس في قلبه من إمكانية الزواج بها، كذلك المصادقة التي تمثلت في إعجاب أسامة صديق يوسف بسلمى وتقدمه لخطبتها، كل ذلك جعل تقاليد الحكاية الشعبية تتسلل إلى الرواية، ولكن الكاتبة وظفتها توظيفاً جيدا من أجل تشكيل رؤيتها الإسلامية، كذلك فإن حسن استثمار التفاصيل جعل الرواية بمنأى عن الترهل الذي كادت أن توحي به تلك المشاهد الحوارية المطولة.

والحبكة في الرواية بسيطة شديدة الإيحاء بالمغزى، فيها بعض التشعبات التي كان يمكن أن تفسد تماسكها لولا أن الكاتبة استطاعت السيطرة عليها وعملت على توظيفها، وكأول عمل روائي للكاتبة يعتبر إنجازاً متقدماً، ولعل الكاتبة تسعى مستقبلاً إلى تشكيل بنية روائية ذات معمار فني يفضي إلى رؤية مركبة أكثر غنى وأقل مباشرة.

ولعل هذا يقودنا إلى سؤال بالغ الأهمية وهو: ما مدى استفادة الكاتبة من رواية «الطريق» التي يتشكل خطها الدرامي عبر نفس (الثيمة) أقصد (موضوع) البحث عن الوالد فصابر سيد الرحيمي بطل «الطريق» باحت له أمه بأسرار أبيه وهي تشارف على النهاية، وكذلك فعلت إيلين أم يوسف التي أخبرته بقصة أبيه في اللحظات الأخيرة من حياتها، ولكن نجيب محفوظ أراد من وراء رحلة البحث عند صابر شيئاً آخر غير الذي أرادته مؤمنة أبوصالح، فقد جعل الكاتب بطله ينتهي إلى السجن، ينتظر الحكم عليه بالإعدام، وعمل على ترميز كل خطوة يخطوها في طريق البحث، وفتح باباً للتأويل بلا حدود ،بينما عمدت مؤمنة إلى إنقاذ بطلها من الضياع، ولم تجعل هناك مجالاً للتأويل أو التحليل، ورحلة البحث عن الأب هذه فكرة راسخة في كثير من النماذج الإبداعية في الآداب العالمية ابتداء من « أوديب ملكاً» لسوفكليس وانتهاءً بالبحث عن الجذور، فقد خرج أوديب يبحث عن حقيقة نسبه، ومنذ خروجه بدا وكأنه مدفوع بيد خفية قررت مصيره ودفعته في النهاية إلى طريق مغلق أدى إلى تحطيمه، وكذلك صابر بطل الطريق الذي انتهى إلى مصير مقارب.

ولعل هذه المقارنة تبدو معتسفة بين كاتب بحجم نجيب محفوظ وكاتبة تسعى إلى تحقيق هدف آخر مختلف وهي تبدأ خطواتها الأولى في عالم الإبداع الروائي، وقد تسلحت برؤية إسلامية سلامية.

نتمنى لمؤمنة المؤمنة برسالتها أن تواصل عملها وأخواتها وإخوانها في إبداع روائي إسلامي من أجل تأسيس مشروع الرواية الإسلامية المستقبلية. ■

---

# إلى الشاعر بدر شاكر السياب

سعيد عاشور
مصر

قم يا صديقي وابتهل
لا تبتئس
عشتارُ حُلمكَ لم تعد
تموز عادَ مقنعاً
لا للخصوبةِ إنما
من كفهِ،
جفت منابعُ نهرنا
قم يا صديقي
وانظر القوم الذين تبعثرت خطواتهم
قم يا صديقي كي ترى
تلك الجنان الزائفاتِ ستقترب
في كف دجالٍ أشر
في كفهِ الأخرى سنابل من لهب
قم يا صديقي وابتهل
لا تبتئس
ضاع الوطن